العـــرب

- الأرض والشعب
- الحكم والاقتصاد
- الديانة والاجتماع

obeikandl.com

obeikandl.com

موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية – على صاحبها الصلاة والسلام – هى فى الحقيقة عبارة عن الرسالة التى حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشرى قولًا وفعلًا، وتوجيها وسلوكًا، وقلب بها موازين الحياة، فبدل مكان السيئة الحسنة، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، حتى عدل خط التاريخ وَغيَّر مجرى الحياة فى العالم الإنسانى، ولا يتم إحضار هذه الصورة الرائعة إلا بعد المقارنة بين البيئة التى سبقت هذه الرسالة وبين ما آلت إليه بعدها.

وهذا يقتضى تقديم فصول موجزة عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام، وعن تاريخ الحكومات والإمارات والنظم القبلية التى كانت سائدة فى ذلك الزمان، مع صور من الديانات والمِلَل والنِّحَل والعادات والتقاليد، والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وقد خصصنا لكل من ذلك هذا الباب، وإليكم تلك الفصول:

موقع العرب:

كلمة العرب تنبئ عن الصحارى والقِفَار، والأرض الْمُجْدِبة التى لا ماء فيها ولا نبات. وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب، كما أطلق على قوم قَطَنُوا تلك الأرض واتخذوها موطنا لهم.

وجزيرة العرب يحدها غربًا البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء، وشرقًا الخليج العربى وجزء من بلاد العراق الجنوبية، وجنوبًا بحر العرب الذى هو امتداد لبحر الهند، وشمالًا بلاد الشام وجزء من بلاد العراق، على اختلاف فى بعض هذه الحدود، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع.

ولجزيرة العرب أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعى والجغرافى؛ فإنها فى وضعها الداخلى محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب؛ ولأجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصنًا منيعًا لم يستطع الأجانب أن يحتلوها ويبسطوا عليها سيطرتهم ونفوذهم. ولذلك نرى سكان الجزيرة أحرارًا فى جميع الشئون منذ أقدم العصور، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتهما لولا هذا السد المنيع.

وأما بالنسبة إلى الخارج، فإنها تقع بين القارات المعروفة فى العالم القديم، وتلتقى به برًّا وبحرًا، فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول فى قارة إفريقية، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوربا، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم؛ ومن ثم آسيا الوسطى وجنوبها والشرق البعيد، وكذلك تلتقى كل قارة بالجزيرة بحرًا، وترسى سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأسًا.

ولأجل هذا الوضع الجغرافى كان شمال الجزيرة وجنوبها موئلًا للأمم، ومركزًا لتبادل التجارة، والثقافة، والديانة، والفنون.

أقوام العرب:

وأما أقوام العرب، فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام؛ بحسب السلالات التى ينحدرون منها:

١ – **العرب البائدة:** وهم العرب القدامى الذين انقرضوا تمامًا ولم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم، مثل: عاد، وثمود، وطَسْم، وجَدِيس، وعِمْلاق، وأُمَيْم، وجُرْهُم، وحَضُور، ووَبَار، وعَبِيل، وجاسم، وحَضْرَمَوت، وغيرها.

٢ – **العرب العاربة:** وهم العرب المنحدرة من صلب يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان، وتسمى بالعرب القحطانية.

٣ – **العرب المستعربة:** وهى العرب المنحدرة من صلب إسماعيل عليه السلام، وتسمى بالعرب العدنانية.

أما العرب العاربة – وهى شعب قحطان : فمَهْدُها بلاد اليمن، وقد تشعبت قبائلها وبطونها من ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. فاشتهرت منها قبيلتان: حِمْيَر بن سبأ، وكَهْلان بن سبأ، وأما بقية بنى سبأ – وهم أحد عشر أو أربعة عشر بطنًا – فيقال لهم: السبئيون، وليست لهم قبائل دون سبأ.

أ – فأما حمير فأشهر بطونها:

١ – قُضَاعة: ومنها بَهْراء وَبِلِىٌّ والقَيْن وكَلْب وعُذْرَة ووَبَرَة.

٢ – السَّكاسِك: وهم بنو زيد بن وائلة بن حمير، ولقب زيد: السكاسك، وهى غير سكاسك كِنْدة الآتية فى بنى كَهْلان.

٣ – زيد الجمهور: ومنها حمير الأصغر، وسبأ الأصغر، وحضور، وذو أصبح.

ب - وأما كَهْلان فأشهر بطونها:

هَمْدان، وألْهَان، والأشْعَر، وطيىء، ومَذْحِج (ومن مذحج: عَنْس والنَّخْع)، ولَخْم (ومن لخم: كندة، ومن كندة: بنو معاوية والسَّكُون والسكاسك)، وجُذَام، وعاملة، وخَوْلان، ومَعَافِر، وأنمار (ومن أنمار: خَثْعَم وبَجِيلَةَ، ومن بجيلة: أحْمَس) والأزْد، (ومن الأزد: الأوس، والخزرج، وخُزَاعة، وأولاد جَفْنَة ملوك الشام المعروفون بآل غسان).

وهاجرت بنو كهلان عن اليمن، وانتشرت فى أنحاء الجزيرة، يقال: كانت هجرة معظمهم قبيل سَيْل العَرِم حين فشلت تجارتهم لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام.

ويقال: بل إنهم هاجروا بعد السيل حين هلك الحرث والنسل بعد أن كانت التجارة قد فشلت، وكانوا قد فقدوا كل وسائل العيش، ويؤيده سياق القرآن [سورة سبأ: ١٥-١٩].

ولا غرو إن كانت هناك - عدا ما تقدم - منافسة بين بطون كهلان وبطون حمير أدت إلى جلاء كهلان، فقد يشير إلى هذا بقاء حمير مع جلاء كهلان.

ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام:

١ - الأزْد:

وكانت هجرتهم على رأى سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مُزَيْقِياء، فساروا يتنقلون فى بلاد اليمن ويرسلون الرواد، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال والشرق. وهاك تفصيل الأماكن التى سكنوا فيها بعد الرحلة نهائيًّا:

* نزل عمران بن عمرو فى عُمَان، واستوطنها هو وبنوه، وهم أزْد عُمَان.
* واستوطنت بنو نصر بن الأزد تُهامة، وهم أزد شَنُوءة.
* وعَطَف[1] ثَعْلَبة بن عمرو مزيقياء نحو الحجاز، فأقام بين الثعلبية وذى قار، ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة، فأقام بها واستوطنها، ومن أبناء ثعلبة هذا: الأوس والخزرج، ابنا حارثة بن ثعلبة.
* وتنقل منهم حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - وبنوه فى ربوع الحجاز، حتى نزلوا بمر الظهران، ثم افتتحوا الحرم فقطنوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة.

(١) أى: مال.

* وسار جَفْنَة بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه، وهو أبو الملوك الغساسنة؛ نسبة إلى ماء فى الحجاز يعرف بغسان، كانوا قد نزلوا بها أولًا قبل انتقالهم إلى الشام.

وانضمت البطون الصغيرة إلى هذه القبائل فى الهجرة إلى الحجاز والشام، مثل كعب بن عمرو، والحارث بن عمرو، وعوف بن عمرو.

٢ - لَخْم وجُذَام:

انتقلوا إلى الشرق والشمال، وكان فى اللخميين نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة.

٣ - بنو طَيِّئ:

ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجأ وسلمى، وأقاموا هناك، حتى عرف الجبلان بجبلى طيئ.

٤ - كِنْدة:

نزلوا بالبحرين، ثم اضطروا إلى مغادرتها فنزلوا بـ (حضرموت)، ولاقوا هناك ما لاقوا بالبحرين، ثم نزلوا نجدًا، وكونوا هناك دولة كبيرة الشأن، ولكنها سرعان ما فنيت وذهبت آثارها.

وهناك قبيلة من حمير مع اختلاف فى نسبتها إليه - وهى قضاعة - هجرت اليمن واستوطنت بادية السماوة من مشارف العراق، واستوطن بعض بطونها مشارف الشام وشمالى الحجاز[(١)].

وأما العرب المستعربة، فأصل جدهم الأعلى - وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام - من بلاد العراق، من مدينة يقال لها: (أر) على الشاطئ الغربى من نهر الفرات، بالقرب من الكوفة، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه المدينة، وعن أسرة إبراهيم عليه السلام، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية فى تلك البلاد.

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حَرَّان، ومنها إلى فلسطين، فاتخذها

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها: نسب معد واليمن الكبير، جمهرة النسب، العقد الفريد، قلائد الجمان، نهاية الأرب، تاريخ ابن خلدون، سبائك الذهب، وكتب الأنساب الأخرى، وما كتب عن تاريخ العرب قبل الإسلام، واختلفت المصادر اختلافًا كبيرًا فى تعيين زمن هذه الهجرات، ولا سبيل إلى البت فى هذا الموضوع، وقد أثبتنا ما ترجح عندنا بعد إدارة النظر فى القرائن والملابسات، والله أعلم بالصواب.

قاعدة لدعوته، وكانت له جولات فى أرجائها وأرجاء غيرها من البلاد، وفى إحدى هذه الجولات أتى إبراهيم عليه السلام على جبار من الجبابرة، ومعه زوجته سارة، وكانت من أحسن النساء، فأراد ذلك الجبار أن يكيد بها، ولكن سارة دعت الله تعالى عليه فرد الله كيده فى نحره، وعرف الظالم أن سارة امرأة صالحة ذات مرتبة عالية عند الله، فأخدمها هاجر[١] اعترافًا بفضلها، أو خوفًا من عذاب الله، ووهبتها سارة لإبراهيم عليه السلام[٢].

ورجع إبراهيم عليه السلام إلى قاعدته فى فلسطين، ثم رزقه الله تعالى من هاجر ابنه إسماعيل، وصار سببًا لغيرة سارة حتى ألجأت إبراهيم إلى نفى هاجر مع ولدها الرضيع - إسماعيل - فقدم بهما إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز، وأسكنهما بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم الذى لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فوضعهما عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ورجع إلى فلسطين، ولم تمض أيام حتى نفد الزاد والماء، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله، فصارت لهما قوتا وبلاغًا إلى حين. والقصة معروفة بطولها[٣].

وجاءت قبيلة يمانية - وهى جُرْهُم الثانية - فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل. يقال: إنهم كانوا قبل ذلك فى الأودية التى بأطراف مكة، وقد صرحت رواية البخارى أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل، وقبل أن يشب، وأنهم كانوا يمرون بهذا الوادى قبل ذلك[٤].

وكان إبراهيم عليه السلام يرتحل إلى مكة ليطالع تركته بها، ولا يعلم بالضبط عدد هذه

---

(١) المعروف أن ذلك الجبار كان فرعون من فراعنة مصر، وأن هاجر كانت أمة مملوكة له، ولكن رجح الكاتب الكبير العلامة القاضى محمد سليمان المنصورفوري- رحمه الله- أنها كانت حرة، وكانت ابنة فرعون، واستند لذلك إلى ما كتبه المحققون من أهل الكتاب فى شروح صحائفهم. « ينظر لذلك: رحمة للعالمين ٢ / ٣٤، ٣٦، ٣٧» وقال ابن خلدون ، وهو يحكى حوارًا دار بين عمرو بن العاص رضي الله عنه وبين أهل مصر أنهم قالوا له: إن هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا، ووقعت بيننا وبين أهل عين شمس حروب كانت لهم فى بعضها دولة، فقتلوا الملك، وسبوها، ومن هناك تسيرت إلى أبيكم إبراهيم. «تاريخ ابن خلدون ٢ / ١ / ٧٧».

(٢) انظر فى تفصيل أصل القصة: صحيح البخارى، ح (٢٢١٧، ٢٦٣٥، ٣٣٥٧، ٣٣٥٨، ٥٠٨٤، ٦٩٥٠).

(٣) انظر: صحيح البخارى: كتاب الأنبياء، ح (٣٣٦٤، ٣٣٦٥).

(٤) المصدر نفسه، ح «٣٣٦٤».

الرحلات، إلا أن المصادر المعتمدة حفظت لنا أربعة منها:

١ – فقد ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم أنه أرى إبراهيم فى المنام أنه يذبح إسماعيل، فقام بامتثال هذا الأمر:] ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < Z [الصافات].

وقد ذكر فى سِفْر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحاق؛ لأن البشارة بإسحاق ذكرت بعد سرد القصة بتمامها.

وهذه القصة تتضمن رحلة واحدة – على الأقل – قبل أن يشب إسماعيل، أما الرحلات الثلاث الأخر فقد رواها البخارى بطولها عن ابن عباس مرفوعًا، وملخصها:

٢ـ أن إسماعيل عليه السلام لما شب وتعلم العربية من جُرْهُم، وأنفسهم وأعجبهم زوجوه امرأة منهم، وماتت أمه، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته، فجاء بعد هذا الزواج، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه وعن أحوالها، فشكت إليه ضيق العيش، فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغير عتبة بابه، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه، فطلق امرأته تلك وتزوج امرأة أخرى (وهى ابنة مُضَاض ابن عمرو، كبير جرهم وسيدهم على قول الأكثر).

٣ – وجاء إبراهيم عليه السلام مرة أخرى بعد أن تزوج إسماعيل هذه الزوجة الثانية، فلم يجده، فرجع إلى فلسطين بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالها، فأثنت على الله بخير، فأوصى إلى إسماعيل أن يُثَبِّتَ عَتَبَة بابه.

٤ – ثم جاء إبراهيم عليه السلام بعد ذلك فلقى إسماعيل، وهو يَبْرِى نَبْلا له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، وكان لقاؤهما بعد فترة طويلة من الزمن، قلما يصبر فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده، والولد البار الصالح الرشيد عن أبيه، وفى هذه المرة بنيا الكعبة، ورفعا قواعدها، وأذَّن إبراهيم فى الناس بالحج كما أمره الله[1].

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مُضَاض اثنى عشر ولدًا ذكرًا،وهم: نابت أو نبايوط،وقَيْدار، وأدبائيل، ومِبْشام، ومِشْماع، ودوما، ومِيشا، وحدد، وتيما، ويَطُور، ونَفيس، وقَيْدُمان.

(١) انظر: صحيح البخارى: كتاب الأنبياء، ح (٣٣٦٤، ٣٣٦٥).

وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة، سكنت كلها فى مكة مدة من الزمان، وكانت جل معيشتهم إذ ذاك التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر، ثم انتشرت هذه القبائل فى أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها، ثم أدرجت أحوالهم فى غياهب الزمان، إلا أولاد نابت وقيدار.

وقد ازدهرت حضارة الأنباط - أبْناء نابت - فى شمال الحجاز، وكونوا دولة قوية عاصمتها البتراء - المدينة الأثرية القديمة المعروفة فى جنوب الأردن، وقد دان لهذه الدولة النبطية من بأطرافها، ولم يستطع أحد أن يناوئها حتى جاء الرومان وقضوا عليها.

وقد جنحت طائفة من المحققين من أهل العلم بالأنساب إلى أن ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج إنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل، وبقاياهم فى تلك الديار.

وإليه مال الإمام البخارى - رحمه الله - فى صحيحه، فقد عقد بابًا عنوانه: (نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام)، واستدل عليه ببعض الأحاديث، ورجح الحافظ ابن حجر فى شرحه أن قحطان من آل نابت بن إسماعيل عليه السلام[(١)].

وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة، يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده مَعَدّ، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها. وعدنان هو الجد الحادى والعشرون فى سلسلة النسب النبوى، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمسك ويقول: «**كذب النسابون**»، فلا يتجاوزه[(٢)]، وذهب جمع من العلماء إلى جواز رفع النسب فوق عدنان؛ مضعفين للحديث المشار إليه، ولكنهم اختلفوا فى هذا الجزء من النسب اختلافا لا يمكن الجمع بين أقوالهم، وقد مال المحقق الكبير العلامة القاضى محمد سليمان المنصورفورى - رحمه الله - إلى ترجيح ما ذكره ابن سعد - والذى ذكره الطبرى والمسعودى وغيرهما فى جملة الأقوال - وهو أن بين عدنان وبين إبراهيم عليه السلام أربعين أبا بالتحقيق الدقيق[(٣)]. وسيأتى.

---

(١) صحيح البخارى: كتاب المناقب، باب نسبة اليمن إلى إسماعيل، ح (٣٥٠٧)، فتح البارى ٦/ ٦٢١-٦٢٣، وانظر: نسب معد واليمن الكبير للكلبى ١ / ١٣١ ، وتاريخ ابن خلدون ٢ / ١ / ٤٦ ، ٢/ ١/ ٢٤١، ٢٤٢.

(٢) انظر: تاريخ الطبرى ٢ / ٢٧٢- ٢٧٦.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٥٦، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٧٢، ٢٧٣، ومروج الذهب للمسعودى ٢ / ٢٧٣، ٢٧٤، وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٢/ ٢٩٨، وفتح البارى ٦/ ٦٢٢، ورحمة للعالمين ٢/ ٨،٧ ، ١٤-١٧.

وقد تفرقت بطون مَعَدّ من ولده نَزَار - قيل: لم يكن لمعد ولد غيره - فكان لنزار أربعة أولاد، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة: إياد وأنمار وربيعة ومُضَر، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما، فكان من ربيعة: ضُبَيْعَة وأسد، ومن أسد: عَنْزَة وجَدِيلة، ومن جديلة: القبائل الكثيرة المشهورة مثل: عبد القيس، والنَّمِر، وبنو وائل الذين منهم بكر وتَغْلِب، ومن بنى بكر: بنو قيس وبنو شيبان وبنو حنيفة وغيرها. أما عنزة فمنها آل سعود ملوك المملكة العربية السعودية فى هذا الزمان.

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين: قَيْس عَيْلان بن مضر، وبطون إلياس بن مضر، فمن قيس عيلان: بنو سليم، وبنو هوازن، وبنو ثقيف، وبنو صَعْصَعَة، وبنو غَطَفان. ومن غطفان: عَبْس، وذُبْيان، وأشْجَع، وأعْصُر.

ومن إلياس بن مُضَر: تميم بن مرة، وهُذَيْل بن مُدرِكة، وبنو أسد بن خزيمة، وبطون كنانة بن خزيمة، ومن كنانة: قريش، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

وانقسمت قريش إلى قبائل شتى، من أشهرها: جُمَح وسَهْم وعَدِيّ ومخزوم وتَيْم وزُهْرَة، وبطون قُصَيّ بن كلاب، وهى: عبد الدار بن قصى، وأسد بن عبد العزى بن قصى، وعبد مناف بن قصى.

وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس، ونَوْفَل، والمطلب، وهاشم، وبيت هاشم هو الذى اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ[(١)].

قال ﷺ: **«إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم»**.

وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله خلق الخلق فجعلنى من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل، فجعلنى من خير القبيلة، ثم تخير البيوت، فجعلنى من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسًا وخيرهم بيتًا»**. وفى لفظ عنه: **«إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم فرقة، ثم جعلهم فرقتين فجعلنى فى خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتًا فجعلنى فى خيرهم بيتًا وخيرهم نفسًا»**[(٢)].

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبى ﷺ ٤/ ١٧٨٢ ح (١)، والترمذى: كتاب المناقب، باب فضل النبى ﷺ ٥/ ٥٤٤ ح (٣٦٠٥) وبمعناه (٣٦٠٦).

(٢) المصدر الأخير نفسه ٥/ ٥٤٥، ح (٣٦٠٧، ٣٦٠٨).

ولما تكاثر أولاد عدنان تفرقوا فى أنحاء شتى من بلاد العرب، متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب.

فهاجرت عبد القيس، وبطون من بكر بن وائل، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها.

وخرجت بنو حنيفة بن على بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحُجْر، قَصَبة اليمامة، وأقامت سائر بكر بن وائل فى طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر، فأطراف سواد العراق فالأُبُلّةُ فَهِيت.

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية، ومنها بطون كانت تساكن بَكْرًا. وسكنت بنو تميم ببادية البصرة.

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة، من وادى القرى إلى خيبر إلى شرقى المدينة إلى حد الجبلين، إلى ما ينتهى إلى الحرة.

وسكنت بنو أسد شرقى تيماء وغربى الكوفة، بينهم وبين تيماء ديار بُحْتُرٍ من طيئ، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال.

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران، وبقى بتهامة بطون كنانة، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصيٌّ بن كلاب، فجمعهم، وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم[(١)].

(١) يراجع لمزيد التفصيل: جمهرة النسب، نسب معد واليمن الكبير، أنساب القرشيين، نهاية الأرب، قلائد الجمان، سبائك الذهب وغيرها.

الحكم والإمارة فى العرب

كان حكام جزيرة العرب عند ظهور دعوة النبى ﷺ على قسمين:

١ـ **ملوك مُتَوَّجُون** – إلا أنهم فى الحقيقة كانوا غير مستقلين.

٢ـ **رؤساء القبائل والعشائر** – وكان لهم من الحكم والامتياز ما كان للملوك المتوجين، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال، وربما كانت لبعضهم تبعية لملك متوج.

والملوك المتوجون هم: ملوك اليمن، وملوك مشارف الشام (وهم آل غسان) وملوك الحيرة، وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة لم تكن لهم تيجان. وفيما يلى موجز عن هؤلاء الملوك والرؤساء.

الملك باليمن:

من أقدم الشعوب التى عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ، وقد عثر على ذكرهم فى حفريات (أور) بخمس وعشرين قرنا قبل الميلاد، ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرنا قبل الميلاد.

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتى:

١ – ما بين ١٣٠٠ إلى ٦٢٠ ق.م:

عرفت دولتهم فى هذه الفترة بالدولة المعينية، ظهرت فى الجَوْف؛ أى السهل الواقع بين نجران وحضرموت، ثم أخذت تنمو وتتسع وتسيطر وتزدهر حتى بلغ نفوذها السياسى إلى العُلا ومَعَان من شمالى الحجاز.

ويقال: إن مستعمراتها وصلت إلى خارج بلاد العرب، وكانت التجارة هى صلب معيشتهم، ثم إنهم بنوا سد مأرب الذى له شأن كبير فى تاريخ اليمن، والذى وفر لهم معظم خيرات الأرض،] حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ Z [الفرقان].

وكان ملوكهم فى هذه الفترة يلقبون بـ (مكرب سبأ) وكانت عاصمتهم مدينة (صِرْوَاح) التى توجد أنقاضها على بعد ٥٠ كيلو مترًا إلى الشمال الغربى من مدينة (مأرب)، وعلى بعد ١٤٢ كيلو مترًا شرقى صنعاء، وتعرف باسم (خُرَيْبة). ويقدر عدد هؤلاء الملوك ما بين ٢٢ و ٢٦ ملكًا[(١)].

(١) اليمن عبر التاريخ، ص ٧٧، ٨٣، ١٢٤، ١٣٠، وتاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٠١ – ١١٣

٢ – ما بين ٦٢٠ ق. م إلى سنة ١١٥ ق. م:

وعرفت دولتهم فى هذه الفترة بدولة سبأ، وقد تركوا لقب (مكرب) وعرفوا بـ (ملوك سبأ)، واتخذوا (مأرب) عاصمة لهم بدل (صرواح)، وتوجد أنقاض مأرب على بعد ١٩٢ كيلو مترًا شرقى صنعاء[١].

٣ – منذ سنة ١١٥ ق. م إلى سنة ٣٠٠ م:

وعرفت الدولة فى هذه الفترة بالدولة الحميرية الأولى؛ لأن قبيلة حمير غلبت واستقلت بمملكة سبأ، وقد عرف ملوكها بـ (ملوك سبأ وذى ريدان)، وهؤلاء الملوك اتخذوا مدينة (ريدان) عاصمة لهم بدل مدينة (مأرب)، و تعرف (ريدان) باسم ظفار، وتوجد أنقاضها على جبل مدور بالقرب من (يريم). وفى هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط، فقد فشلت تجارتهم إلى حد كبير لبسط الأنباط سيطرتهم على شمال الحجاز أولًا، ثم لغلبة الرومان على طريق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمالى الحجاز ثانيًا، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثًا. وهذه العناصر هى التى سببت فى تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة.

٤ – منذ سنة ٣٠٠ م إلى أن دخل الإسلام فى اليمن:

عرفت الدولة فى هذه الفترة بالدولة الحميرية الثانية، وعرف ملوكها بـ (ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت)، وقد توالت على هذه الدولة الاضطرابات والحوادث، وتتابعت الانقلابات والحروب الأهلية التى جعلتها عرضة للأجانب حتى قضى على استقلالها. ففى هذا العهد دخل الرومان فى عدن، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠ م؛ مستغلين التنافس بين قبيلتى همدان وحمير، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨ م. ثم نالت اليمن استقلالها، ولكن بدأت تقع الثلمات فى سد مأرب، حتى وقع السيل العظيم الذى ذكره القرآن بسيل العرم فى سنة ٤٥٠م، أو ٤٥١ م. وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب.

وفى سنة ٥٢٣م قاد ذو نُوَاس اليهودى حملة منكرة على المسيحيين من أهل نجران، وحاول صرفهم عن المسيحية قسرًا، ولما أبوا خدّ لهم الأخدود وألقاهم فى النيران، وهذا الذى أشار إليه القرآن فى سورة البروج بقوله:] + , - . Z الآيات [البروج].

(١) اليمن عبر التاريخ، ص ٧٧، ٨٣، ١٢٤، ١٣٠، وتاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٠١ – ١١٣

وكان هذا الحادث هو السبب فى نقمة النصرانية الناشطة إلى الفتح والتوسع تحت قيادة أباطرة الرومان من بلاد العرب، فقد حرضوا الأحباش، وهيأوا لهم الأسطول البحرى، فنزل سبعون ألف جندى من الحبشة، واحتلوا اليمن مرة ثانية، بقيادة أرياط سنة ٥٢٥ م، وظل أرياط حاكمًا من قبل ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة بن الصباح الأشرم - أحد قواد جيشه - سنة ٥٤٩م، ونصب نفسه حاكمًا على اليمن بعد أن استرضى ملك الحبشة وأرضاه، وأبرهة هذا هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة، وعرف هو وجنوده بأصحاب الفيل. وقد أهلكه الله بعد عودته إلى صنعاء عقب وقعة الفيل، فخلفه على اليمن ابنه يَكْسُوم، ثم الابن الثانى مسروق، وكانا - فيما يقال - شرا من أبيهما، وأخبث سيرة منه فى اضطهاد أهل اليمن وقهرهم وإذلالهم.

أما أهل اليمن فإنهم بعد وقعة الفيل استنجدوا بالفرس، وقاموا بمقاومة الحبشة حتى أجلوهم عن البلاد، ونالوا الاستقلال فى سنة ٥٧٥م بقيادة معديكرب سيف بن ذى يزن الحميرى، واتخذوه ملكًا لهم، وكان معديكرب أبقى معه جمعًا من الحبشة يخدمونه ويمشون فى ركابه، فاغتالوه ذات يوم، وبموته انقطع الملك عن بيت ذى يزن، وصارت اليمن مستعمرة فارسية تتعاقب عليها ولاة من الفرس، وكان أولهم وهرز، ثم المرزبان بن وهرز، ثم ابنه التينجان، ثم خسرو بن التينجان، ثم باذان، وكان آخر ولاة الفرس، فإنه اعتنق الإسلام سنة ٦٢٨م، وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن[(١)].

الملك بالحيرة:

كانت الفرس تحكم بلاد العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير «٥٥٧ - ٥٢٩ ق. م» ولم يكن أحد يناوئهم، حتى قام الإسكندر المقدونى سنة ٣٢٦ ق. م فهزم ملكهم دارا وبددهم وخضد شوكتهم، حتى تجزأت بلادهم، وتولاها ملوك عرفوا بملوك الطوائف، وقد ظل هؤلاء الملوك يحكمون البلاد مجزأة إلى سنة ٢٣٠م. وفى عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون، واحتلوا جزءًا من ريف العراق، ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فزاحموهم حتى سكنوا جزءًا من الجزيرة الفراتية.

(١) انظر فى تفصيل ذلك: اليمن عبر التاريخ ص ٧٧- ٨٣، ١٢٤ - ١٣٠، ١٥٧ - ١٦١ وغيرها، وتاريخ أرض القرآن ١/ ١٣٣ إلى نهاية الكتاب، وتاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٠١ - ١٥١، وفى تعيين السنين وتفصيل بعض الحوادث اختلاف كبير بين المصادر التاريخية، وقد قال بعض الكتاب عن هذه التفاصيل: «إن هذا إلا أساطير الأولين».

وأول من ملك من هؤلاء المهاجرين هو مالك بن فَهْم التَّنُوخى من آل قحطان، وكان منزله الأنبار، أو مما يلى الأنبار، وخلفه أخوه عمرو بن فهم فى رواية[١]. وجَذِيمة بن مالك بن فهم - الملقب بالأبْرش والوَضَّاح - فى رواية أخرى[٢].

وعادت القوة مرة ثانية إلى الفرس فى عهد أردشير بن بابك - مؤسس الدولة الساسانية سنة ٢٢٦م - فإنه جمع شمل الفرس، واستولى على العرب المقيمين على تخوم ملكه، وكان هذا سببا فى رحيل قضاعة إلى الشام، ولكن دان له أهل الحيرة والأنبار.

وفى عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر مَنْ ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر، وكأن أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة، ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه، إلا أن يملك عليهم رجلًا منهم له عصبية تؤيده وتمنعه، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان، وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جنود الفرس؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية، وكان موت جذيمة حوالى سنة ٢٦٨ م.

وبعد موت جذيمة ولى الحيرة والأنبار عمرو بن عدى بن نصر اللخمى (٢٦٨ـ ٢٨٨م) وهو أول ملوك اللخميين، وأول من اتخذ الحيرة مقرًّا له، وكان فى عهد كسرى سابور بن أردشير، ثم لم يزل الملوك من اللخميين من بعده يتولون الحيرة حتى ولى الفرس قُبَاذ بن فيروز (٤٤٨ـ ٥٣١م) وفى عهده ظهر مَزْدَك، وقام بالدعوة إلى الإباحية، فتبعه قباذ كما تبعه كثير من رعيته، ثم أرسل قباذ إلى ملك الحيرة - وهو المنذر بن ماء السماء (٥١٢ـ ٥٥٤ م) - يدعوه إلى اختيار هذا المذهب الخبيث، فأبى عليه ذلك حمية وأنفة، فعزله قباذ، وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندى بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكى.

وخلف قباذ كسرى أنوشروان (٥٣١ـ ٥٧٨م) وكان يكره هذا المذهب جدًّا، فقتل المزدك وكثيرًا ممن دان بمذهبه، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة، وطلب الحارث بن عمرو، لكنه أفلت إلى دار كلب، فلم يزل فيهم حتى مات.

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء فى عقبه حتى كان النعمان بن المنذر (٥٨٣

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٥٤٠، واختاره ابن خلدون فى تاريخه ٢/ ٢/ ٢٣٨ وأن جذيمة ولى بعد عمرو ابن فهم، وكان ابن أخيه مالك بن فهم.

(٢) اليعقوبى ١/ ١٦٩، والمسعودى ٢/ ٩٠.

ـ٦٠٥ م) فإنه غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادى، فأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه، فخرج النعمان حتى نزل سرا على هانئ بن مسعود سيد آل شيبان، وأودعه أهله وماله، ثم توجه إلى كسرى، فحبسه كسرى حتى مات. وولى على الحيرة بدله إياس بن قَبِيصة الطائى، وأمره أن يرسل إلى هانئ بن مسعود يطلب منه تسليم ما عنده، فأبى ذلك هانئ حمية، وآذن الملك بالحرب، ولم يلبث أن جاءته مرازبة كسرى وكتائبه فى موكب إياس، ودارت بين الفريقين معركة هائلة عند ذى قار، انتصر فيها بنو شيبان وانهزمت الفرس هزيمة نكراء. وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم[(١)]، وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ.

واختلف المؤرخون فى تحديد زمن هذه المعركة، فقيل: هو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل، وأنه ﷺ ولد لثمانية أشهر من ولاية إياس بن قبيصة على الحيرة. وقيل: قبل النبوة بقليل – وهو الأقرب. وقيل: بعد النبوة بقليل. وقيل: بعد الهجرة. وقيل: بعد بدر. وقيل غير ذلك.

وولى كسرى على الحيرة بعد إياس حاكمًا فارسيًّا اسمه آزادبه بن ماهبيان بن مهرابنداد، وظل يحكم ١٧ عاما (٦١٤ـ ٦٣١م) ثم عاد الملك إلى آل لخم سنة ٦٣٢م، فتولى منهم المنذر ابن النعمان الملقب بالمغرور، ولكن لم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين[(٢)].

الملك بالشام:

فى العهد الذى ماجت فيه العرب بهجرات القبائل سارت بطون من قضاعة إلى مشارف الشام وسكنت بها، وكانوا من بنى سُلَيْح بن حُلْوان الذين منهم بنو ضَجْعَم بن سليح المعروفون باسم الضجاعمة، فاصطنعهم الرومان؛ ليمنعوا عرب البرية من العبث، وليكونوا عدة ضد الفرس، وولوا منهم ملكًا، ثم تعاقب الملك فيهم سنين، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهَبُولة، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثانى الميلادى إلى نهايته تقريبًا، وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان، الذين غلبوا الضجاعمة على ما بيدهم وانتصروا عليهم، فولتهم الروم ملوكًا على عرب الشام، وكانت قاعدتهم مدينة بصرى،

(١) روى ذلك مرفوعًا عن رسول الله ﷺ خليفة بن خياط فى مسنده ص ٢٤، وابن سعد ٧/ ٧٧.
(٢) التفصيل عند الطبرى والمسعودى وابن قتيبة وابن خلدون والبلاذرى وابن الأثير وغيرهم.

ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالًا لملوك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة ١٣هـ، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جَبَلَة بن الأيهم فى عهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه[١].

الإمارة بالحجاز:

ولى إسماعيل عليه السلام زعامة مكة وولاية البيت طول حياته، وتوفى وله ١٣٧ سنة[٢]، ثم ولى واحد، وقيل: اثنان من أبنائه: نابت ثم قَيْدار، ويقال العكس، ثم ولى أمر مكة بعدهما جدهما مُضَاض بن عمرو الجُرْهُمِىّ، فانتقلت زعامة مكة إلى جرهم، وظلت فى أيديهم، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم؛ لما لأبيهم من بناء البيت، ولم يكن لهم من الحكم شيء[٣].

ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل عليه السلام ضئيلًا لا يذكر، حتى ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بُخْتُنَصَّر، وأخذ نجم عدنان السياسى يتألق فى أفق سماء مكة منذ ذلك العصر، بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب فى ذات عِرْق، فإن قائد العرب فى الموقعة لم يكن جرهميًّا، بل كان عدنان نفسه[٤].

وتفرقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ ق. م) وذهب برخيا - صاحب يرمياه النبى الإسرائيلى بَمَعَدّ - إلى حران من الشام، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع معد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جَوْشَم بن جُلْهُمة، فتزوج بابنته مُعَانة فولدت له نزارًا[٥].

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك، وضاقت أحوالهم، فظلموا الوافدين إليها، واستحلوا مال الكعبة[٦]، الأمر الذى كان يغيظ العدنانيين ويثير حفيظتهم، ولما نزلت خزاعة بِمَرِّ الظَّهْران، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك، فقامت بمعونة

(١) التفصيل عند الطبرى والمسعودى وابن قتيبة وابن خلدون والبلاذرى وابن الأثير وغيرهم.
(٢) سفر التكوين ٢٥ : ١٧، وتاريخ الطبرى ١/ ٣١٤، وفى قول عنده وعند اليعقوبى ١/ ٢٢٢ وغيرهما: إنه توفى وله مائة وثلاثون سنة.
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ١١١- ١١٣، وقد ذكر ابن هشام ولاية نابت فقط من أولاد إسماعيل عليه السلام.
(٤) تاريخ الطبرى ١/ ٥٥٩.
(٥) تاريخ الطبرى ١ / ٥٥٩، ٥٦٠، ٢/ ٢٧١، وفتح البارى ٦/ ٦٢٢.
(٦) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٨٤.

من بطون عدنان – وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة – بمحاربة جرهم، حتى أجلتهم عن مكة، واستولت على حكمها فى أواسط القرن الثانى للميلاد.

ولما لجأت جرهم إلى الجلاء سدوا بئر زمزم، ودرسوا موضعها، ودفنوا فيها عدة أشياء، قال ابن إسحاق: فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى[١] بغزالى الكعبة[٢]، وبحجر الركن الأسود فدفنهما فى بئر زمزم، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزنًا شديدًا، وفى ذلك قال عمرو:

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصَّفَا أنيس ولم يَسْمُر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صُرُوف الليالى والجُدُود العَوَاثِر[٣]

ويقدر زمن إسماعيل عليه السلام بعشرين قرنًا قبل الميلاد، فتكون إقامة جرهم فى مكة واحدًا وعشرين قرنًا تقريبًا، وحكمهم على مكة زهاء عشرين قرنًا.

واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بنى بكر، إلا أنه كان إلى قبائل مضر ثلاث خلال:

الأولى: الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة، والإجازة بهم يوم النفر من منى، وكان يلى ذلك بنو الغَوْث بن مرة من بطون إلياس بن مضر، وكانوا يسمون صُوفَة، ومعنى هذه الإجازة أن الناس كانوا لا يرمون يوم النفر حتى يرمى رجل من صوفة، ثم إذا فرغ الناس من الرمى وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانبى العقبة، فلم يجز أحد حتى يمروا، ثم يخلون سبيل الناس، فلما انقرضت صوفة ورثهم بنو سعد بن زيد مناة من تميم.

الثانية: الإفاضة من جمع غداة النحر إلى منى، وكان ذلك فى بنى عدوان.

الثالثة: إنساء الأشهر الحرم، وكان ذلك إلى بنى فُقَيْم بن عدى من بنى كنانة[٤].

---

(١) هذا غير مضاض الجرهمى الأكبر الذى مضى ذكره فى قصة عليه السلام.

(٢) قال المسعودى: وكانت الفرس تهدى إلى الكعبة أموالًا فى صدر الزمان وجواهر، وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزالين من الذهب وجواهر وسيوفًا وذهبًا كثيرًا فقذفه «عمرو» فى بئر زمزم، وقد ذهب قوم من مصنفى الكتب فى التواريخ وغيرها من السير أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكة، وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها، ويحتمل أن يكون لغيرها، والله أعلم مروج الذهب ١/ ٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) ابن هشام ١/ ١١٤، ١١٥، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٨٥، والجدود: جمع الجَدِّ، وهو الحظ.

(٤) ابن هشام ١/ ٤٤، ١١٩، ١٢٢.

واستمرت (ولاية) خزاعة على مكة ثلاثمائة سنة[١]. وفى وقت حكمهم انتشر العدنانيون فى نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقى بأطراف مكة بطون من قريش وهم حُلُول وصِرْم[٢] متقطعون، وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة، وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شىء حتى جاء قصى بن كلاب.[٣]

ويذكر من أمر قصى: أن أباه مات وهو فى حضن أمه، ونكح أمه رجل من بنى عُذْرَة - وهو ربيعة بن حرام - فاحتملها إلى بلاده بأطراف الشام، فلما شب قصى رجع إلى مكة، وكان واليها إذ ذاك حُلَيْل بن حَبْشِيَّة من خزاعة، فخطب قصى إلى حليل ابنته حُبَّى، فرغب فيه حليل وزوجه إياها[٤]، فلما مات حليل قامت حرب بين خزاعة وقريش، أدت أخيرًا إلى تغلب قصى على أمر مكة والبيت.

وهناك ثلاث روايات فى بيان سبب هذه الحرب:

الأولى: أن قصيًّا لما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه وهلك حليل، رأى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر، وإن قريشًا رءوس آل إسماعيل وصريحهم، فكلم رجالًا من قريش وبنى كنانة فى إخراج خزاعة وبنى بكر عن مكة فأجابوه[٥].

الثانية: أن حليلًا - فيما تزعم خزاعة - أوصى قصيًّا بالقيام على الكعبة وبأمر مكة، ولكن أبت خزاعة أن تمضى ذلك لقصى فهاجت الحرب بينهما[٦].

الثالثة: أن حليلًا أعطى ابنته حبى ولاية البيت، واتخذ أبا غُبْشان[٧] الخزاعى وكيلا

(١) ياقوت: مادة «مكة»، وفتح البارى ٦ / ٦٣٣، ومروج الذهب للمسعودي ٢ / ٥٨.

(٢) الحلول- بضم الحاء- جمع حال بتشديد اللام بمعنى النازل: أي المقيم، والصرم - بكسر الصاد وسكون الراء: هو الطائفة من القوم ينزلون بإبلهم ناحية من الماء، والجمع: أصرام.

(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١١٧.

(٤) ابن هشام ١/ ١١٧، ١١٨ وحُلَيل بضم الحاء مصغرًا، وحَبْشية بفتح فسكون، وهو ابن سلول بفتح فضم، ابن عمرو بن لحى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن ماء السماء. وحُبّى بضم المهملة وتشديد الموحدة مع الإمالة، قاله الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ٦ / ٦٣٣. وقال آخرون: حُبْشية بضم الحاء وسكون الباء وكسر الشين وتشديد الياء.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ١١٧، ١١٨، والطبرى ٢ / ٢٥٥، ٢٥٦.

(٦) سيرة ابن هشام ١/ ١١٨، والروض الأنف ١/ ١٤٢.

(٧) بضم الغين المعجمة وسكون الموحدة، واسمه المحرش أو سليم بن عمرو. فتح البارى ٦/ ٦٣٣ ، والروض الأنف ١/ ١٤٢.

لها، فقام أبو غبشان بسدانة الكعبة نيابة عن حبى، وكان فى عقله شيء، فلما مات حليل خدعه قصى، واشترى منه ولاية البيت بأذواد من الإبل أو بزق من الخمر، ولم ترض خزاعة بهذا البيع، وحاولوا منع قصى عن البيت، فجمع قصى رجالًا من قريش وبنى كنانة لإخراج خزاعة من مكة، فأجابوه[١].

وأيا ما كان، فلما مات حليل وفعلت صوفة ما كانت تفعل أتاهم قصى بمن معه من قريش وكنانة عند العقبة، فقال: نحن أولى بهذا منكم، فقاتلوه فغلبهم قصى على ما كان بأيديهم، وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصى، فبادأهم قصى وأجمع لحربهم، فالتقوا واقتتلوا قتالًا شديدًا حتى كثرت القتلى فى الفريقين جميعا، ثم تداعوا إلى الصلح فحكَّموا يَعْمُر بن عوف أحد بنى بكر، فقضى بأن قصيًّا أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة، وكل دم أصابه قصى منهم موضوع يشدخه تحت قدميه، وما أصابت خزاعة وبنو بكر ففيه الدية، وأن يخلى بين قصى وبين الكعبة، فسمى يعمر يومئذ: الشداخ[٢].

وكانت فترة تولى خزاعة أمر البيت ثلاثمائة سنة، واستولى قصى على أمر مكة والبيت فى أواسط القرن الخامس للميلاد سنة ٤٤٠ م[٣]،وبذلك صارت لقصى ثم لقريش السيادة التامة والأمر النافذ فى مكة، وصار قصى هو الرئيس الدينى لهذا البيت الذى كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة.

ومما فعله قصى بمكة أنه جمع قومه من منازلهم إلى مكة، وقطعها رباعًا بين قومه، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التى أصبحوا عليها، وأقر النسأة وآل صفوان وعدوان ومرة بن عوف على ما كانوا عليه من المناصب؛ لأنه كان يراه دينًا فى نفسه لا ينبغى تغييره[٤].

ومن مآثر قصى: أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالى من مسجد الكعبة، وجعل بابها إلى المسجد، وكانت مجمع قريش، وفيها تفصيل مهام أمورها، ولهذه الدار فضل على قريش؛ لأنها ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى[٥].

وكان لقصى من مظاهر الرياسة والتشريف:

---

(١) تاريخ اليعقوبى ١ / ٢٣٩، وفتح البارى ٦/ ٦٣٤، والمسعودى ٢ / ٥٨.

(٢) انظر التفصيل فى: سيرة ابن هشام ١/ ١٢٣، ١٢٤، وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٥٥- ٢٥٨.

(٣) فتح البارى ٦/ ٦٣٣، والمسعودى ٢/ ٥٨، وقلب جزيرة العرب، ص ٢٣٢.

(٤) ابن هشام ١/ ١٢٤، ١٢٥.

(٥) ابن هشام ١/ ١٢٥، وإخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، ص ١٥٢.

١ - **رياسة دار الندوة:** ففيها كانوا يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور، وفيها كانوا يزوجون بناتهم.

٢ - **اللواء:** فكانت لا تعقد راية ولا لواء لحرب قوم من غيرهم إلا بيده أو بيد أحد أولاده، وفى هذه الدار.

٣ - **القيادة:** وهى إمارة الركب، فكانت لا تخرج ركب لأهل مكة فى تجارة أو غيرها إلا تحت إمارته أو إمارة أولاده.

٤ - **الحجابة:** وهى حجابة الكعبة،لا يفتح بابها إلا هو، وهو الذى يلى أمر خدمتها وسدانتها.

٥ - **سقاية الحاج:** وهى أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضًا من الماء، يحلونها بشىء من التمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة.

٦ - **رفادة الحاج:** وهى طعام كان يصنع للحاج على طريقة الضيافة، وكان قصى فرض على قريش خرجًا تخرجه فى الموسم من أموالها إلى قصى، فيصنع به طعامًا للحاج، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد[(١)].

كان كل ذلك لقصى، وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد فى حياته، وكان عبد الدار بكره. فقال له قصى فيما يقال: لألحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش، فأعطاه دار الندوة واللواء والقيادة والحجابة والسقاية والرفادة، وكان قصى لا يخالف ولا يرد عليه شىء صنعه، وكان أمره فى حياته وبعد موته كالدين المتبع، فلما هلك أقام بنوه أمره لا نزاع بينهم، ولكن لما هلك عبد مناف نافس أبناؤه بنى عمهم عبد الدار فى هذه المناصب، وافترقت قريش فرقتين، وكاد يكون بينهم قتال، إلا أنهم تداعوا إلى الصلح، واقتسموا هذه المناصب، فصارت السقاية والرفادة والقيادة إلى بنى عبد مناف، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيد بنى عبد الدار. وقيل: كانت دار الندوة بالاشتراك بين الفريقين، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم، فصارت السقاية والرفادة لهاشم والقيادة لعبد شمس، فكان هاشم بن عبد مناف هو الذى يلى السقاية والرفادة طول حياته، فلما مات خلفه أخوه المطلب بن عبد مناف، وولى بعده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ، وبعده أبناؤه حتى جاء الإسلام والولاية إلى العباس. ويقال: إن قصيًّا

(١) ابن هشام ١ / ١٣٠، وتاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤٠، ٢٤١.

هو الذى قسم المناصب على أولاده، ثم توارثها أبناؤهم حسب التفصيل المذكور، والله أعلم[١].

وكانت لقريش مناصب أخرى -سوى ما ذكرنا- وزعوها فيما بينهم، وكونوا بها دويلة - بل بتعبير أصح: شبه دويلة ديمقراطية - وكانت لهم من الدوائر والتشكيلات الحكومية ما يشبه فى عصرنا هذا دوائر البرلمان ومجالسها، وهاك لوحة من تلك المناصب:

١ـ **الإيسار**: أى تولية قداح الأصنام للاستقسام، وكان ذلك فى بنى جُمَح.

٢ - **تحجير الأموال**: أى تنظيم القربات والنذور التى كانت تهدى إلى الأصنام، وكذلك فصل الخصومات والمرافعات. وكان ذلك فى بنى سهم.

٣ - **الشورى**: وكانت فى بنى أسد.

٤ - **الأشناق**: أى تنظيم الديات والغرامات، وكان ذلك فى بنى تَيْم.

٥ - **العقاب**: أى حمل اللواء القومى، وكان ذلك فى بنى أمية.

٦ - **القبة**: أى تنظيم المعسكر، وكذلك قيادة الخيل، وكان فى بنى مخزوم.

٧ - **السفارة**: وكانت فى بنى عدى[٢].

الحكم فى سائر العرب:

قد تقدم ذكر هجرات القبائل القحطانية والعدنانية، وأنها اقتسمت البلاد العربية فيما بينها، فما كان من هذه القبائل بالقرب من الحيرة كانت تبعًا لملك العرب بالحيرة، وما كان منها فى بادية الشام كانت تبعًا للغساسنة، إلا أن هذه التبعية كانت اسمية لا فعلية، وأما ما كان منها فى البوادى فى داخل الجزيرة فكانت حرة مطلقة.

والحقيقة أن هذه القبائل كانت تختار لأنفسها رؤساء يسودونها، وأن القبيلة كانت حكومة مصغرة، أساس كيانها السياسى الوحدة العصبية، والمنافع المتبادلة فى حماية الأرض ودفع العدوان عنها.

وكانت درجة رؤساء القبائل فى قومهم كدرجة الملوك، فكانت القبيلة تبعًا لرأى سيدها فى السلم والحرب، لا تتأخر عنه بحال، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأى ما

---

(١) ابن هشام ١/ ١٢٩- ١٣٢، ١٣٧، ١٤٢، ١٧٨، ١٧٩، وانظر: اليعقوبى ١/ ٢٤١.

(٢) تاريخ أرض القرآن ٢/ ١٠٤ - ١٠٦، والمعروف أن حمل اللواء كان من حق بنى عبدالدار كما تقدم، وإنما كانت القيادة العامة من حق بنى أمية.

يكون لدكتاتور قوى؛ حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألوف من السيوف لا تسأله: فيم غضب، إلا أن المنافسة فى السيادة بين أبناء العم كانت تدعوهم إلى المصانعة بالناس من بذل الندى وإكرام الضيف والكرم والحلم، وإظهار الشجاعة والدفاع عن الغيرة، حتى يكسبوا المحامد فى أعين الناس، ولاسيما الشعراء الذين كانوا لسان القبيلة فى ذلك الزمان، وحتى تسمو درجتهم عن مستوى المنافسين.

وكان للسادة والرؤساء حقوق خاصة، فكانوا يأخذون من الغنيمة المِرْباع والصَّفِيّ والنَّشيطة والفُضُول، يقول الشاعر:

لـك الـمِـرْبَـاع فينا والـصَّـفَـايـا وحُكْمُـك والنَّشِـيطة والفُضُـول

والمرباع: ربع الغنيمة، والصفى: ما كان يصطفيه الرئيس، أى يختاره لنفسه قبل القسمة، والنشيطة: ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم. والفضول: ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة، كالبعير والفرس ونحوهما.

الحالة السياسية:

بعد أن ذكرنا حكام العرب يجمل بنا أن نذكر جملة من أحوالهم السياسية حتى يتضح الوضع، فالأقطار الثلاثة التى كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية فى تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه. فقد كان الناس بين سادة وعبيد، أو حكام ومحكومين، فالسادة – ولاسيما الأجانب – كان لهم كل الغُنْم، والعبيد عليهم كل الغُرْم، وبعبارة أوضح: إن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات، والحكومات كانت تستخدمها فى ملذاتها وشهواتها، ورغائبها، وجورها، وعدوانها. أما الناس فكانوا فى عمايتهم يتخبطون، والظلم ينحط عليهم من كل جانب، وما فى استطاعتهم التذمر والشكوى، بل كانوا يسامون الخسف والجور والعذاب ألوانًا ساكتين، فقد كان الحكم استبداديا، والحقوق ضائعة مهدورة.

وأما القبائل المجاورة لهذه الأقطار فكانوا مذبذبين تتقاذفهم الأهواء والأغراض، مرة يدخلون فى أهل العراق، ومرة يدخلون فى أهل الشام.

وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية، حتى قال ناطقهم:

ومـا أنـا إلا من غَـزِّيـة إن غَـوَتْ غويـت، وإن ترشـد غزيـة أرشـد

ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم، أو مرجع يرجعون إليه، ويعتمدون عليه وقت الشدائد.

وأما حكومة الحجاز فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام، ويرونها قادة وسَدَنة المركز الدينى، وكانت تلك الحكومة فى الحقيقة خليطًا من الصدارة الدنيوية والحكومية والزعامة الدينية، حكمت بين العرب باسم الزعامة الدينية، وحكمت فى الحرم وما والاه بصفتها حكومة تشرف على مصالح الوافدين إلى البيت، وتنفذ حكم شريعة إبراهيم، وكانت لها من الدوائر والتشكيلات ما يشابه دوائر البرلمان - كما أسلفنا - ولكن هذه الحكومة كانت ضعيفة لا تقدر على حمل العبء كما وضح يوم غزو الأحباش.

obeikandl.com

ديانات العرب

كان معظم العرب يدينون بدين إبرهيم عليه السلام منذ أن نشأت ذريته فى مكة وانتشرت فى جزيرة العرب، فكانوا يعبدون الله ويوحدونه ويلتزمون بشعائر دينه الحنيف، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظًّا مما ذكروا به، إلا أنهم بقى فيهم التوحيد وعدة شعائر من هذا الدين، حتى جاء عمرو ابن لُحَيٍّ رئيس خزاعة، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس ودانوا له، ظنًّا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء.

ثم إنه سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنه حقًّا؛ لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه بهُبَل وجعله فى جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله فأجابوه، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة؛ لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم.

وكان هبل من العقيق الأحمر على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب، وكان أول صنم للمشركين وأعظمه وأقدسه عندهم[(١)].

ومن أقدم أصنامهم مَناة، كانت لهُذَيْل وخزاعة، وكانت بالمُشَلَّل على ساحل البحر الأحمر حذو قُدَيْد، والمشلل: ثنية جبل يهبط منها إلى قديد[(٢)]. ثم اتخذوا اللات فى الطائف، وكانت لثقيف، وكانت فى موضع منارة مسجد الطائف اليسرى[(٣)]، ثم اتخذوا العُزَّى بوادى نخلة الشامية فوق ذات عِرْق، وكانت لقريش وبنى كنانة مع كثير من القبائل الأخرى[(٤)].

وكانت هذه الأصنام الثلاثة أكبر أوثان العرب، ثم كثر فيهم الشرك، وكثرت الأوثان فى كل بُقعة.

ويذكر أن عمرو بن لحى كان له رئى من الجن، فأخبره أن أصنام قوم نوح - ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا - مدفونة بجدة، فأتاها فاستثارها، ثم أوردها إلى تهامة، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل، فذهبت بها إلى أوطانها.

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبى، ص ٢٨.
(٢) صحيح البخارى، ح (١٦٤٣، ١٧٩٠، ٤٤٩٥، ٤٨٦١)، فتح البارى ٣/ ٤٩٩، ٨/ ٦١٣.
(٣) كتاب الأصنام لابن الكلبى، ص ١٦.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٨، ١٩، وفتح البارى ٨/ ٦١٢، وتفسير القرطبى ١٧/ ٩٩.

فأما ود: فكانت لكلب، بجَرَش بدَوْمَة الجندل من أرض الشام مما يلى العراق، وأما سواع: فكانت لهذيل بن مُدْرِكة بمكان يقال له: رُهَاط من أرض الحجاز، من جهة الساحل بقرب مكة، وأما يغوث: فكانت لبنى غُطَيف من بنى مراد، بالجُرْف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لهمدان فى قرية خَيْوان من أرض اليمن، وخيوان: بطن من همدان، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذى الكلاع فى أرض حمير[(١)].

وقد اتخذوا لهذه الطواغيت بيوتًا كانوا يعظمونها كتعظيم الكعبة، وكانت لها سدنة وحجاب، وكانت تهدى لها كما يهدى للكعبة، مع اعترافهم بفضل الكعبة عليها[(٢)].

وقد سارت قبائل أخرى على نفس الطريق، فاتخذت لها أصنامًا آلهة وبنت لها بيوتًا مثلها، فكان منها ذو الخَلَصَة لدَوْس وخَثْعَم وبُجَيْلَة، ببلادهم من أرض اليمن، بتَبَالة بين مكة واليمن، وكانت فِلْس لبنى طيئ ومن يليها بين جبلى طيئ: سلمى وأجأ. وكان منها ريام، بيت بصنعاء لأهل اليمن وحمير، وكانت منها رضاء، بيت لبنى ربيعة ابن كعب بن سعد بن زيد، مناة بن تميم، وكان منها الكَعَبَات لبكر وتغلب ابنى وائل، ولإياد بِسَنْدَاد[(٣)].

وكان لدَوْس أيضًا صنم يقال له: ذو الكفين، ولبنى بكر ومالك وملكان أبناء كنانة صنم يقال له: سعد، وكان لقوم من عذرة صنم يقال له: شمس[(٤)]، وكان لخولان صنم يقال له: عُمْيانِس[(٥)].

وهكذا انتشرت الأصنام ودور الأصنام فى جزيرة العرب، حتى صار لكل قبيلة ثم فى كل بيت منها صنم، أما المسجد الحرام فكانوا قد ملأوه بالأصنام، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا، فجعل يطعنها بعود فى يده حتى تساقطت، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت، وكان فى جوف الكعبة أيضًا أصنام وصور، منها صنم على صورة إبراهيم، وصنم على صورة إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - وبيدهما

(١) صحيح البخارى، ح (٤٩٢٠)، فتح البارى ٦ / ٥٤٩، ٨ / ٦٦٨، والمنمق لمحمد بن حبيب، ص ٣٢٧، ٣٢٨، وكتاب الأصنام لابن الكلبى، ص ٩ - ١١، ٥٦ - ٥٨.

(٢) ابن هشام ١/ ٨٣.

(٣) ابن هشام ١/ ٧٨، ٨٩، وتفسير ابن كثير: سورة نوح.

(٤) تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٥٥.

(٥) ابن هشام ١/ ٨٠.

الأزلام، وقد أزيلت هذه الأصنام ومحيت هذه الصور أيضًا يوم الفتح[١].

وقد تمادى الناس فى غيهم هذا حتى يقول أبو رجاء العُطاردى رضي الله عنه: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثْوَةً من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به[٢].

وجملة القول: إن الشرك وعبادة الأصنام كانا أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام.

أما فكرة الشرك وعبادة الأصنام فقد نشأت فيهم على أساس أنهم لما رأوا الملائكة والرسل والنبيين وعباد الله الصالحين من الأولياء والأتقياء والقائمين بأعمال الخير - لما رأوهم أنهم أقرب خلق الله إليه، وأكرمهم درجة وأعظمهم منزلة عنده، وأنهم قد ظهرت على أيديهم بعض الخوارق والكرامات، ظنوا أن الله أعطاهم شيئًا من القدرة والتصرف فى بعض الأمور التى تختص بالله سبحانه وتعالى، وأنهم لأجل تصرفهم هذا ولأجل جاههم ومنزلتهم عند الله يستحقون أن يكونوا وسطاء بين الله سبحانه وتعالى وبين عامة عباده، فلا ينبغى لأحد أن يعرض حاجته على الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم يشفعون له عند الله، وأن الله لا يرد شفاعتهم لأجل جاههم، كذلك لا ينبغى القيام بعبادة الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم بفضل مرتبتهم سوف يقربونه إلى الله زلفى.

ولما تمكن منهم هذا الظن ورسخ فيهم هذا الاعتقاد اتخذوهم أولياء، وجعلوهم وسيلة فيما بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، وحاولوا التقرب إليهم بكل ما رأوه من أسباب التقرب؛ فنحتوا لمعظمهم صورًا وتماثيل، إما حقيقية تطابق صورهم التى كانوا عليها، وإما خيالية تطابق ما تخيلوا لهم من الصور فى أذهانهم - وهذه الصور والتماثيل هى التى تسمى بالأصنام.

وربما لم ينحتوا لهم صورًا ولا تماثيل، بل جعلوا قبورهم وأضرحتهم وبعض مقراتهم ومواضع نزولهم واستراحتهم أماكن مقدسة، وقدموا إليها النذور والقرابين، وأتوا لها بأعمال الخضوع والطاعات، وهذه الأضرحة والمقرات والمواضع هى التى تسمى بالأوثان.

(١) صحيح البخارى، ح (١٦١٠، ٢٤٧٨، ٣٣٥١، ٣٣٥٢، ٤٢٨٧، ٤٢٨٨، ٤٧٢٠).
(٢) المصدر نفسه، ح (٤٣٧٦).

أما عبادتهم لهذه الأصنام والأوثان فكانت لهم فيها تقاليد وأعمال ابتدع أكثرها عمرو ابن لحى، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحى فهو بدعة حسنة، وليس بتغيير لدين إبراهيم عليه السلام، فكان من جملة عبادتهم للأصنام والأوثان أنهم:

١ – كانوا يعكفون عليها ويلتجئون إليها.. ويهتفون بها، ويستغيثونها فى الشدائد، ويدعونها لحاجاتهم، معتقدين أنها تشفع عند الله، وتحقق لهم ما يريدون.

٢ – وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها، ويتذللون عندها، ويسجدون لها.

٣ – وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين، فكانوا يذبحون وينحرون لها على أنصابها، كما كانوا يذبحون بأسمائها فى أى مكان.

وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله تعالى فى قوله:] 6 7 8 9 Z [المائدة:٣]، وفى قوله:] P Q R S T U V W Z [الأنعام: ١٢١].

٤ – وكان من أنواع التقرب إلى هذه الأصنام والأوثان أنهم كانوا يخصون لها شيئا من مآكلهم ومشاربهم حسبما يبدو لهم، وكذلك كانوا يخصون لها نصيبا من حرثهم وأنعامهم، ومن الطرائف: أنهم كانوا يخصون من ذلك جزءًا لله أيضًا. وكانت عندهم عدة أسباب ينقلون لأجلها إلى الأصنام ما كان لله، ولكن لم يكونوا ينقلون إلى الله ما كان لأصنامهم بحال، قال تعالى:] وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ Z [الأنعام].

٥ – وكان من أنواع التقرب إليها النذر فى الحرث والأنعام، قال تعالى:] ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 Z [الأنعام: ١٣٨].

٦ – وكانت منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى.

قال سعيد بن المسيب: البحيرة: التى يمنع درها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس. والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم، فلا يحمل عليها شىء. والوصيلة: الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل بأنثى، ثم تثنى بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى، ليس بينهما ذكر. والحامى: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود (العشر من الإبل) فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شىء

وسموه الحامى[١].

وقال ابن إسحاق: البحيرة بنت السائبة، هى الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر، سيبت فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها، ثم خلى سبيلها مع أمها فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فعل بأمها، فهى البحيرة بنت السائبة. والوصيلة: الشاة إذا أتأمت عشر إناث متتابعات فى خمسة أبطن ليس بينهم ذكر جعلت وصيلة. قالوا: قد وصلت، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شىء فيشترك فى أكله ذكورهم وإناثهم. والحامى: الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره، فلم يركب، ولم يجز وبره، وخلى فى إبله يضرب فيها، لا ينتفع منه بغير ذلك، وفى ذلك أنزل الله تعالى: [Æ Ç È É Ê Ë Ì Í Î Ï Ð Ò Ó Z [المائدة]، وأنزل: [Ô Õ Ö × Ø Ú Û Ü Ý Þ ß à á â ã ä å æ ç è é ê ë ì í î ï ð ñ ò ó ô õ ö ÷ ø ù ú û ü ý þ ÿ Z [الأنعام: ١٣٩]، وقيل فى تفسير هذه الأنعام غير ذلك[٢].

وقد مر عن سعيد بن المسيب أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم. وفى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «رأيت عمرو بن عامر بن لحى الخزاعى يجر قَصَبَه (أى أمعاءه) فى النار»[٣]؛ لأنه أول من غير دين إبراهيم، فنصب الأوثان وسيب السائبة، وبحر البحيرة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى[٤].

كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامهم معتقدين أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه، وتشفع لديه، كما فى القرآن: [` a b c d e f g Z [الزمر: ٣] [وَيَعْبُدُونَ مِن

(١) صحيح البخارى، ح (٤٦٢٣)، فتح البارى ٨/ ١٢٣، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٨/ ٥٣، ومابين المعقوفين من صحيح ابن حبان.

(٢) ابن هشام ١/ ٨٩، ٩٠، وانظر: المنمق لابن حبيب، ص ٣٢٨، ٣٢٩.

(٣) صحيح البخارى، ح (١٢١٢) فتح البارى ٣/ ٩٨، وح (٣٥٢١) فتح البارى ٦/ ٦٣٣، وح (٤٦٢٣) فتح البارى ٨/ ١٣٢.

(٤) نقله الحافظ فى الفتح ٦/ ٦٣٤ عن ابن إسحاق، ومثله عند ابن الكلبى فى الأصنام، ص ٨، وعند ابن حبيب فى المنمق، ص ٣٢٨، وبعض منها موجود فى صحيح البخارى مرفوعا، وبعض آخر عزاه الحافظ إلى صحيح مسلم من رواية أبى صالح عن أبى هريرة، انظر: فتح البارى ٨/ ٢٨٥.

دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ Z [يونس: ١٨].

وكانت العرب تستقسم بالأزلام، والزَّلَم: القدح الذى لا ريش له، وكانت الأزلام ثلاثة أنواع:

١ - نوع فيه ثلاثة أسهم، أحدها: (نعم)، وثانيها: (لا)، وثالثها: (غُفْل)، كانوا يستقسمون بها فيما يريدون من العمل؛ من نحو السفر والنكاح وأمثالهما. فإن خرج (نعم) عملوا به، وإن خرج (لا) أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى، وإن طلع (غفل) أعادوا الضرب حتى يخرج واحد من الأولين.

٢ - ونوع فيه المياه والعقول والديات.

٣- ونوع فيه (منكم) أو (من غيركم) أو (ملصق)، فكانوا إذا شكوا فى نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل، وبمائة درهم وجزور، فأعطوها صاحب القداح، فإن خرج (منكم) كان منهم وسيطًا، وإن خرج عليه (من غيركم) كان حليفًا، وإن خرج عليه (ملصق) كان على منزلته فيهم، لا نَسَب ولا حِلْف[(١)].

ويقرب من هذا الميسر والقداح، وهو ضرب من القمار، كانوا يقتسمون به لحم الجزور التى كانوا يتقامرون عليها؛ وذلك أنهم كانوا يشترون الجزور نسيئة فينحرونها ويقسمونها ثمانية وعشرين قسمًا، أو عشرة أقسام، ثم يضربون عليها بالقداح، وفيها (الرابح) و (الغفل)، فمن خرج له قدح (الرابح) فاز، وأخذ نصيبه من الجزور، ومن خرج له (الغفل) خاب وغرم ثمنها[(٢)].

وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين، والكاهن: هو من يتعاطى الأخبار عن الكوائن فى المستقبل، ويدعى معرفة الأسرار ومن الكهنة من يزعم أن له تابعًا من الجن، ومنهم من يدعى إدراك الغيب بفهم أعطيه، ومنهم من يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا القسم يسمى عرافًا، كمن يدعى معرفة المسروق ومكان السرقة والضالة ونحوهما. والمنجم: من ينظر فى النجوم أى الكواكب، ويحسب سيرها ومواقيتها، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التى تقع فى المستقبل[(٣)].

(١) انظر: فتح البارى ٨/ ٢٧٧، وابن هشام ١/ ١٥٢، ١٥٣.

(٢) بسطه اليعقوبى فى تاريخه ١/ ٢٥٩، ٢٦١ مع اختلاف فى بعض الجزئيات.

(٣) اللسان وكتب اللغة.

والتصديق بأخبار المنجمين هو فى الحقيقة إيمان بالنجوم، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء، فكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا[١].

وكانت فيهم الطيرة (بكسر ففتح) وهى التشاؤم بالشىء، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبى فينفرونه، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا وعدوه حسنًا، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان فى طريقهم.

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور والحيوانات والدور والنساء، والاعتقاد بالعدوى والهامة، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره، وتصير روحه هامة أى بومة تطير فى الفلوات، وتقول: صدى صدى أو اسقونى اسقونى، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح[٢].

كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا من دين إبراهيم، لم يكونوا قد تركوه كله – مثل تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف بعرفة والمزدلفة، وإهداء البدن – وإنما كانوا قد ابتدعوا فى ذلك بدعًا:

منها: أن قريشًا كانوا يقولون: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم، وولاة البيت وقاطنو مكة، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنا – وكانوا يسمون أنفسهم الحُمْس – فلا ينبغى لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل، فكانوا لا يقفون بعرفة، ولا يفيضون منها، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل الله تعالى: [` a b c d e Z [البقرة: ١٩٩][٣].

ومنها: أنهم قالوا: لا ينبغى للحمس أن يأقِطوا الأقِط ولا يسلأوا السمن وهم حرم، ولا يدخلوا بيتًا من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما داموا حرمًا[٤].

ومنها: أنهم قالوا: لا ينبغى لأهل الحِلِّ أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى

(١) انظر: صحيح البخارى، ح (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، وصحيح مسلم ١/ ٨٣، ح (٧١).
(٢) انظر: صحيح البخارى، ح (٥٧٥٧، ٥٧٧٠) مع حاشيته الهندية.
(٣) ابن هشام ١/ ١٩٩، وصحيح البخارى، ح «١٦٦٥ ، ٥٤٢٠». وسُموا حُمْسا؟ لتحمسهم لدينهم.
(٤) المصدر الأول نفسه ١/ ٢٠٢ وأقَط الأقِط: أى صنعه، والأقط: شىء يتخذ من اللبن المخيض، يطبخ ثم يترك حتى يمصل؛ أى يتقاطر ماؤه ويذهب، وسلأ السمن: أخرجه من اللبن.

الحرم، إذا جاءوا حجاجا أو عمارًا[(١)].

ومنها: أنهم أمروا أهل الحل ألا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس، وكانت الحمس يحتسبون على الناس، يعطى الرجل الرجل الثياب يطوف فيها، وتعطى المرأة المرأة الثياب، تطوف فيها، فإن لم يجدوا شيئًا فكان الرجال يطوفون عراة، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعًا مفرجًا ثم تطوف فيه، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

وأنزل الله فى ذلك:] " # $ % & ' (Z [الأعراف: ٣١]. فإن تكرم أحد من الرجل والمرأة فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها بعد الطواف، ولا ينتفع بها هو ولا أحد غيره[(٢)].

ومنها: أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها فى حال الإحرام، بل كانوا ينقبون فى ظهور البيوت نقبًا يدخلون ويخرجون منه، وكانوا يحسبون ذلك الجفاء برّا، وقد نهى عنه القرآن، قال الله تعالى:] وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۚ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ Z[(٣)] [البقرة].

كانت هذه الديانة - ديانة الشرك وعبادة الأوثان، والاعتقاد بالأوهام والخرافات - هى الديانة السائدة فى جزيرة العرب، وقد وجدت اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئية سبلًا للدخول فى ربوعها.

ولليهود دوران - على الأقل - مثلوهما فى جزيرة العرب:

الأول: هجرتهم فى عهد الفتوح البابلية والآشورية فى فلسطين، فقد نشأ عن الضغط على اليهود، وعن تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بُخْتُنَصر سنة ٥٨٧ ق. م، وسبى أكثرهم إلى بابل أن قسمًا منهم هجر البلاد الفلسطينية إلى الحجاز، وَتَوطَّن فى ربوعها الشمالية[(٤)].

---

(١) ابن هشام ١/ ٢٠٢.

(٢) ابن هشام ١/ ٢٠٢، ٢٠٣، وصحيح البخارى، ح (١٦٦٥).

(٣) صحيح البخارى، ح (١٨٠٣، ٤٥١٢)، وتفسير ابن جرير: تفسير الآية، وفتح البارى ٣/ ٦٢١، ٦٢٢.

(٤) قلب جزيرة العرب، ص ٢٥١.

الدور الثانى: يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين بقيادة تيطس الرومانى سنة ٧٠م، فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود وعن تخريب الهيكل وتدميره أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز، واستقرت فى يثرب وخيبر وتيماء، وأنشأت فيها القرى والآطام والقلاع، وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق هؤلاء المهاجرين، وأصبح لها شأن يذكر فى الحوادث السياسية التى سبقت ظهور الإسلام، والتى حدثت فى صدره. وحينما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة هى: خيبر والنضير والمُصْطَلَق وقريظة وقينقاع، وذكر السمهودى أن عدد القبائل اليهودية التى نزلت بيثرب بين حين وآخر: يزيد على عشرين[١].

ودخلت اليهودية فى اليمن من قبل تُبَّان أسعد أبى كَرَب، فإنه ذهب مقاتلًا إلى يثرب، واعتنق هناك اليهودية، وجاء بحبرين من بنى قريظة إلى اليمن، فأخذت اليهودية إلى التوسع والانتشار فيها، ولما ولى اليمن بعده ابنه يوسف ذو نُوَاس هجم على النصارى من أهل نجران ودعاهم إلى اعتناق اليهودية، فلما أبوا خدّ لهم الأخدود وأحرقهم بالنار، ولم يفرق بين الرجل والمرأة والأطفال الصغار والشيوخ الكبار، ويقال: إن عدد المقتولين ما بين عشرين ألفًا إلى أربعين ألفًا[٢]. وقع ذلك فى شهر أكتوبر سنة ٥٢٣م[٣]. وقد ذكرهم الله تعالى فى القرآن الكريم فى سورة البروج؛ إذ يقول:] + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > Z [البروج].

* أما الديانة النصرانية، فقد جاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الحبشة وبعض البعثات الرومانية، وكان أول احتلال الأحباش لليمن سنة ٣٤٠ م، ولكن لم يطل أمد هذا الاحتلال، فقد طردوا منها ما بين عامي ٣٧٠ـ ٣٧٨ م[٤]، إلا أنهم شجعوا على نشر النصرانية وتشجعوا لها، وقد وصل أثناء هذا الاحتلال رجل زاهد مستجاب الدعوات وصاحب كرامات – اسمه فيميون – إلى نجران، ودعاهم إلى دين النصرانية، فلبوا دعوته، واعتنقوا النصرانية؛ لما رأوا من آيات صدقه وصدق دينه[٥].

---

(١) وفاء الوفا ١/ ١٦٥ مع المصدر السابق.

(٢) انظر للتفصيل: ابن هشام ١/ ٢٠– ٢٢، ٢٧، ٣١، ٣٥، وتفسير سورة البروج من كتب التفاسير.

(٣) اليمن عبر التاريخ، ص ١٥٨، ١٥٩.

(٤) اليمن عبر التاريخ، ص ١٥٨، ١٥٩، وتاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٢٢، ٤٣٢.

(٥) انظر في ذلك مفصلًا: ابن هشام ١/ ٣١-٣٤.

ولما احتلت الأحباش اليمن مرة أخرى عام ٥٢٥م - كرد فعل على ما أتاه ذو نواس من تحريق نصارى نجران فى الأخدود، وتمكن أبرهة الأشرم من حكومة اليمن - أخذ ينشر الديانة النصرانية بأوفر نشاط وأوسع نطاق، حتى بلغ من نشاطه أنه بنى كعبة باليمن، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ويهدم بيت الله الذى بمكة، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى.

وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيئ وغيرهما لمجاورة الرومان، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة أيضًا.

* أما المجوسية، فكان ما كان منها فى العرب المجاورين للفرس، فكانت فى عراق العرب وفى البحرين - الأحسا - وهَجَر وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربى، ودان لها رجال من اليمن فى زمن الاحتلال الفارسى.

* أما الصابئية - وهى ديانة تمتاز بعبادة الكواكب وبالاعتقاد فى أنواء المنازل وتأثير النجوم وأنها هى المدبرة للكون - فقد دلت الحفريات والتنقيبات فى بلاد العراق وغيرها أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانيين، وقد دان بها كثير من أهل الشام وأهل اليمن فى غابر الزمان، وبعد تتابع الديانات الجديدة من اليهودية والنصرانية، تضعضع بنيان الصابئية وخمد نشاطها، ولكن لم يزل فى الناس بقايا من أهل هذه الديانة مختلطين مع المجوس أو مجاورين لهم فى عراق العرب وعلى شواطئ الخليج العربى[(١)]. وقد وجد شىء من الزندقة فى بعض العرب، وكانت وصلت إليهم عن طريق الحيرة، كما وجدت فى بعض قريش لاحتكاكهم بالفرس عن طريق التجارة.

الحالة الدينية:

كانت هذه الديانات هى ديانات العرب حين جاء الإسلام، وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبوار، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهى شريعة إبراهيم، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق. وكثرت فيهم المعاصى، ونشأ فيهم على توالى الزمان ما ينشأ فى الوثنيين من عادات وتقاليد تجرى مجرى الخرافات الدينية، وأثرت فى الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيرًا بالغًا جدًّا.

* أما اليهودية، فقد انقلبت رياء وتحكمًا، وصار رؤساؤها أربابًا من دون الله،

(١) تاريخ أرض القرآن ٢/ ١٩٣- ٢٠٨.

يتحكمون فى الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه، وجعلوا همهم الحظوة بالمال والرياسة وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر، والتهاون بالتعاليم التى حض الله عليها، وأمر كل فرد بتقديسها.

* وأما النصرانية، فقد عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطًا عجيبًا بين الله والإنسان، ولم يكن لها فى نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقى؛ لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التى ألفوها، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها.

وأما سائر أديان العرب: فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين، فقد تشابهت قلوبهم، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم.

obeikandl.com

صور من المجتمع العربى الجاهلي

بعد البحث عن سياسة الجزيرة وأديانها يجمل بنا أن نلقى شيئًا من الضوء على أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والخلقية، وفيما يلى بيانها بإيجاز:

الحالة الاجتماعية:

كانت فى العرب أوساط متنوعة تختلف أحوال بعضها عن بعض، فكانت علاقة الرجل مع أهله فى الأشراف على درجة كبيرة من الرقى والتقدم، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر، وكانت محترمة مصونة تُسَلُّ دونها السيوف، وتراق الدماء، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بما له فى نظر العرب المقام السامى من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب فى معظم أوقاته إلا المرأة، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها، ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم.

بينما هذه حال الأشراف، كان هناك فى الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة. روى البخارى وغيره عن عائشة رضي الله عنها:

«إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم؛ يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نَجَابة الولد، فكان هذا النكاح [يسمى] نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت، ووضعت ومر [ت] ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، [فـ] تقول لهم: قد عرفتم الذى كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، [فـ] تسمى من أحبت [منهم] باسمه، فيلحق به ولدها. لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل،ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها،وهن البغايا،كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا، فمن أرادهن دخل عليهن،

فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون، فالتاطته به، ودعى ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث [الله] محمدًا ﷺ بالحق هدم نكاح [أهل] الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم»[(١)].

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدها شفار السيوف، وأسنة الرماح، فكان المتغلب فى حروب القبائل يسبى نساء المقهور فيستحلها، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم.

وكان من المعروف فى أهل الجاهلية أنهم كانوا يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهى إليه، حتى حددها القرآن فى أربع. وكانوا يجمعون بين الأختين، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها حتى نهى عنهما القرآن [سورة النساء: ٢٢، ٢٣]، وكان الطلاق والرجعة بيد الرجال، ولم يكن لهما حد معين حتى حددهما الإسلام[(٢)].

وكانت فاحشة الزنا سائدة فى جميع الأوساط، لا نستطيع أن نخص منها وسطًا دون وسط، أو صنفًا دون صنف إلا أفرادًا من الرجال والنساء ممن كان تعاظم نفوسهم يأبى الوقوع فى هذه الرذيلة، وكانت الحرائر أحسن حالًا من الإماء، والطامة الكبرى هى الإماء، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار فى الانتساب إلى هذه الفاحشة، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قام رجل فقال: يا رسول الله، إن فلانًا ابنى، عاهرت بأمه فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «**لا دعوة فى الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش وللعاهر الحَجَر**»[(٣)]، وقصة اختصام سعد بن أبى وقاص وعبد بن زَمْعَة فى ابن أمة زمعة – وهو عبد الرحمن ابن زمعة – معروفة[(٤)].

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى، فمنهم من يقول:

---

(١) صحيح البخارى، ح (٥١٢٧)، وسنن أبى داود: كتاب النكاح، باب وجوه النكاح التى كان يتناكح بها أهل الجاهلية. وما بين المعقوفين من سن أبى داود.

(٢) سنن أبى داود: باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث. وهذا الذى ذكره المفسرون فى سبب نزول قوله تعالى:] v w Z [البقرة: ٢٢٩].

(٣) أبو داود: باب الولد للفراش، ومسند أحمد ٢/ ٢٠٧.

(٤) وانظر لهذه القصة: صحيح البخارى، ح (٢٠٥٣، ٢٢١٨، ٢٤٢١، ٢٥٣٣، ٢٧٤٥، ٤٣٠٣، ٦٧٤٩، ٦٧٦٥، ٦٨١٧، ٧١٨٢) فتح البارى ٤ / ٣٤٢.

إنـــمـــا أولادنـــــــا بـيـنـنـا أكـبـادنـا تمشى عـلـى الأرض

ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق:[الأنعام: ١٥١، النحل:٥٨، ٥٩، الإسراء:٣١، التكوير:٨] ولكن لا يمكن لنا أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة، فقد كانوا أشد الناس احتياجًا إلى البنين ليتقوا بهم العدو.

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية، فقد كانوا يحيون للعصبية القبلية ويموتون لها، وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية، وكان أساس النظام الاجتماعى هو العصبية الجنسية والرحم، وكانوا يسيرون على المثل السائر: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» على المعنى الحقيقى من غير التعديل الذى جاء به الإسلام؛ من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه، إلا أن التنافس فى الشرف والسؤدد كثيرًا ما كان يفضى إلى الحروب بين القبائل التى كان يجمعها أب واحد، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج، وعَبْس وذُبْيان، وبَكْر وتَغْلِب وغيرها.

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تمامًا، وكانت قواهم متفانية فى الحروب، إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها. وأحيانًا كانت الموالاة والحلف والتبعية تفضى إلى اجتماع القبائل المتغايرة. وكانت الأشهر الحرم رحمة وعونًا لهم على حياتهم وحصول معايشهم. فقد كانوا يأمنون فيها تمام الأمن؛ لشدة التزامهم بحرمتها، يقول أبو رجاء العُطاردى: إذا دخل شهر رجب قلنا: مُنَصِّلُ الأسِنَّة؛ فلا ندع رمحًا فيه حديدة ولا سهمًا فيه حديدة إلا نزعناه، وألقيناه شهر رجب[١]. وكذلك فى بقية الأشهر الحرم[٢].

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت فى الحضيض من الضعف والعماية، فالجهل ضارب أطنابه، والخرافات لها جولة وصولة، والناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحيانا، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة، وما كان من الحكومات فجُلُّ همتها ملء الخزائن من رعيتها أو جر الحروب على مناوئيها.

(١) صحيح البخارى، ح (٤٣٧٦)..

(٢) فتح البارى ٨/ ٩١.

الحالة الاقتصادية:

أما الحالة الاقتصادية، فتبعت الحالة الاجتماعية، ويتضح ذلك إذا نظرنا فى طرق معايش العرب. فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة، والجولة التجارية لا تتيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام، وكان ذلك مفقودًا فى جزيرة العرب إلا فى الأشهر الحرم، وهذه هى الشهور التى كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عُكاظ وذى المجَاز ومَجَنَّة وغيرها.

وأما الصناعات، فكانوا أبعد الأمم عنها، ومعظم الصناعات التى كانت توجد فى العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت فى أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام، نعم، كان فى داخل الجزيرة شىء من الزراعة والحرث واقتناء الأنعام، وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب، وكان الفقر والجوع والعرى عامًّا فى المجتمع.

الأخلاق:

لا شك أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنايا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم، ويأباها الوجدان، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان ويفضى به إلى الدهشة والعجب، فمن تلك الأخلاق:

١ - **الكرم**: وكانوا يتبارون فى ذلك ويفتخرون به، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به ومُثْنٍ على غيره، كان الرجل يأتيه الضيف فى شدة البرد والجوع وليس عنده من المال إلا ناقته التى هى حياته وحياة أسرته، فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها، فيذبحها لضيفه. ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحمالات المدهشة، يكفون بذلك سفك الدماء، وضياع الإنسان، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات.

وكان من نتائج كرمهم: أنهم كانوا يتمدحون بشرب الخمور، لا لأنها مفخرة فى ذاتها؛ بل لأنها سبيل من سبل الكرم، ومما يسهل السَّرَف على النفس، ولأجل ذلك كانوا يسمون شَجَرَ العنب بالكَرْم، وخَمْرَه بِبِنْتِ الكرم. وإذا نظرت إلى دواوين أشعارالجاهلية تجد ذلك بابًا من أبواب المديح والفخر، يقول عنترة بن شداد العبسى فى معلقته:

ولقد شَرِبْتُ من المُدَامَة بَعْدَ ما رَكَد الهَواجِرُ بالمَشُوفِ المُعْلِمِ[(١)]

(١) المدامة: الخمر. الهواجر، جمع هاجرة: نصف النهار. المشوف: المجلو الصافى. المعلم: الذى وضعت عليه علامة.

بـزُجَـاجَـةٍ صَـفْـراء ذات أسِـرَّة قُرِنَتْ بأزهرَ بالشِّمَال مُـفَـدَّمِ[١]
فـإذا شَـرِبـتُ فإننى مُسْتَهْلِك مالى وعِرْضِى وافِـرٌ لم يُكْلَمِ[٢]
وإذا صَحَوْتُ فما أُقَصِّرُ عن نَدَى وكما عَلمت شمائلى وَتَكَرُّمِى

ومن نتائج كرمهم: اشتغالهم بالميسر، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم؛ لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه أو ما كان يفضل عن سهام الرابحين؛ ولذلك ترى القرآن لا ينكر نفع الخمر والميسر وإنما يقول:] À Á Â Ã Zi [البقرة: ٢١٩].

٢ - **الوفاء بالعهد:** فقد كان العهد عندهم دينًا يتمسكون به، ويستهينون فى سبيله قتل أولادهم، وتخريب ديارهم، وتكفى فى معرفة ذلك قصة هانئ بن مسعود الشيبانى، والسَّمَوْأل بن عاديا، وحاجب بن زرارة التميمى[٣].

٣ - **عزة النفس والإباء عن قبول الخسف والضيم:** وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة وشدة الغيرة، وسرعة الانفعال، فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان، وأثاروا الحروب العوان، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم فى هذا السبيل.

٤ - **المضى فى العزائم:** فإذا عزموا على شىء يرون فيه المجد والافتخار، لا يصرفهم عنه صارف، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم فى سبيله.

٥ - **الحلم، والأناة، والتؤدة:** كانوا يتمدحون بها، إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود؛ لفرط شجاعتهم وسرعة إقدامهم على القتال.

---

(١) أسرة، جمع سرار: خطوط الوجه وأمثاله، والمراد هنا خطوط فى الكأس. أزهر: صفة إناء الخمر. مفدم: الذى وضع عليه الفدام، وهو ما يوضع فى فم الإبريق ليصفى به ما فيه.

(٢) لم يكلم. لم يجرح.

(٣) مضت قصة هانئ تحت عنوان: الملك بالحيرة. وأما قصة سموأل فيقال: إن امرأ القيس أودع عنده دروعا، وأراد الحارث بن أبى شَمِّر الغسانى أن يأخذها منه فأبى، وتحصن بقصره فى تيماء، وكان أحد أبناء سموأل خارج القصر، فأخذه الحارث وهدده بقتله إن لم يسلم الدروع، فأبى حتى قتل الحارث ابنه أمام عينيه.

وأما قصة حاجب فهى أنه استأذن كسرى فى إنزال قومه على حدود كسرى لجدب أصابهم، فخاف كسرى منهم الغارة والفساد، فأبى إلا بالضمان، فضمن حاجب ورهنه قوسه، فوفى بوعده حتى توفى، وانتهى الجدب فرجع قومه إلى بلادهم، وذهب ابنه عطارد بن حاجب رضي الله عنه إلى كسرى يسترد قوس أبيه، فردها عليهم لوفاء أبيه.

٦ – السذاجة البدوية، وعدم التلوث بلوثات الحضارة ومكائدها: وكان من نتائجها: الصدق، والأمانة، والنفور عن الخداع، والغدر.

نرى أن هذه الأخلاق الثمينة – مع ما كان لجزيرة العرب من الموقع الجغرافى بالنسبة إلى العالم– كانت سببًا فى اختيار الله عز وجل إياهم لحمل عبء الرسالة العامة، وقيادة الأمة الإنسانية، وإصلاح المجتمع البشرى؛ لأن هذه الأخلاق وإن كان بعضها يفضى إلى الشر، ويجلب الحوادث المؤلمة، إلا أنها كانت فى نفسها أخلاقًا ثمينة، تدر بالمنافع العامة للمجتمع البشرى بعد شىء من الإصلاح، وهذا الذى فعله الإسلام.

ولعل أغلى ما عندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعًا – بعد الوفاء بالعهد – هو عزة النفس والمضى فى العزائم؛ إذ لا يمكن قمع الشر والفساد وإقامة نظام العدل والخير إلا بهذه القوة القاهرة، وبهذا العزم الصميم. ولهم أخلاق فاضلة أخرى دون هذه التى ذكرناها، وليس قصدنا استقصاءها.

obeikandl.com